تأملات مرقس أوريليوس

بقلم
الأستاذ علي أدهم

مقدمة

يقول أفلاطون فى جمهوريته على لسان سقراط « لا يمكن خلاص المدن من الشقاء ، بل خلاص الإنسانية جميعها ما لم يملك الفلاسفة ، أو يتفلسف الملوك والحكام فلسفة صحيحة تامة ، أى ما لم تتحد القوتان السياسية والفلسفية فى شخص واحد ، وما لم ينسحب من حلقة الحكم الأشخاص الذين يقتصرون على إحدى هاتين القوتين ، فلا تبرز الجمهورية التى صورناها فى بحثنا إلى حيز الوجود ، ولا ترى نور الشمس ، والذى حملنى على التردد فى إبداء هذا الرأى هو شعورى بأنه يضاد الرأى العام كل المضادة ، لأنه يعسر الاقتناع بأنه وسيلة لحصول الفرد والدولة على السعادة » .

وفى موضع آخر يقول « والحقيقة أن خير الدول هى الدولة التى يكون حكامها زاهدين فى الحكم ، ومثل هذه الدولة تحكم فى هدوء ، وشر الدول هى الدولة التى يحرص حكامها على الحكم أشد الحرص » .

وهذان هما شرطا الحكومة الصالحة فى رأى صاحب الجمهورية ، وكان يبدو له هو نفسه أن توفرهما يقرب من المستحيل ، فهو يرى أن الحاكم يجب أن يكون فيلسوفاً ، وأن يكون فى الوقت نفسه غير راغب فى الحكم ، لأن حبه للفلسفة أقوى من حبه للحكم والسيطرة .

ومهما يكن حظ رأى كبير الفلاسفة وشيخ المفكرين من الصواب والحكمة فان هذه الصورة التى تمثلها ، صورة الحاكم الفيلسوف الزاهد فى الحكم ، قد تحققت إلى حد كبير بعد موت أفلاطون بقرون معدودة فى الإمبراطور الفيلسوف الرومانى مرقس أورليوس ، فهو الحاكم الذى كان يؤثر الخلوة بين كتبه والفراغ للمطالعة والدرس على تقلد السلطة واحتمال أعباء الحكم ، وهو القائد الأعلى للجيش الذى كان يذهب لخوض المعارك وإراقة الدماء وازهاق الأرواح وهو يفضل السلم ، وأن يعيش الناس أمة واحدة فى ظل الأمن المستقر والمحبة الدائمة والإخاء والعدالة .

وفى رأى الكثيرين ممن توفروا على دراسة حياة هذا الإمبراطور الفيلسوف أنه كان أقرب إنموذج للإنسان الذى كاد أن يخلو من العيوب ويبرأ من النقائص ، وأنه وصل إلى مرتبة من السمو يصعب على غيره بلوغها ، فكان لا تغضبه الإساءة إليه ، بل يعطف

على المسئ ، ويدرس أخلاق الناس ويتعرف طبائعهم لا لكى يقع على أخطائهم وجوانب ضعفهم ، وإنما لكى يهتدى إلى محاسنهم الخفية ومزاياهم الكامنة ، وكان مثلا نادراً فى الاعتدال والتسامح وعذوبة النفس وسجاحة الخلق وكرم السجية ، ومعظم الناجحين فى الحياة يقدمون ضريبة من الثناء يمتزج فيها التقدير العاطف بالنقد لأساتذتهم السابقين وأسلافهم الأولين ، ولكن مرقس أورليوس وهو فى الخمسين من عمره وبين أعماله الكثيرة الناصبة ومشاغله الهامة المضنية يأوى إلى حجرته ويلوذ بصمته ليعدد مآثر الرجال الصالحين الذين عرفهم وأفاد منهم ، وكان يعرف ما تنطوى عليه نفوس البشر من شر وأثرة وإحن وأحقاد ولكنه كان يتعمد أن يغض الطرف عن ذلك كله ويبحث عن المحاسن وينشد الجمال الأخلاقى ، وكان لا يفكر فى أخطاء غيره وإنما يراقب نفسه مراقبة شديدة ، ويحاسبها على أخطائها حساباً عسيراً ، ويجهد فى علاج عيوبها ، وهمه أن يجعل المسئ محسناً وأن يجعل المحسن متزيداً من الاحسان ، والعين العاطفة الودود قد تستبين فى النفوس محاسن لا تراها عين الساخر الكلبى المزاج ، وقد يرى بسلامة طبعه واستقامة بصيرته أبعد مما يرى الساخرون وأصدق مما يرون ، فوراء الضعف البشرى قد تكون هناك دوافع أكرم وأنبل ، وكان يتلقى الكوارث والخطوب والأحداث الفاجعة بصبر المؤمن المحتسب ، وجلد الحكيم الصبور ، وهو يذكرنى بقول المتنبى فى إحدى مدائحه لسيف الدولة :

وانا لنلقى الحادثات بأنفس
كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسومنا
وتسلم أعراض لنا وعقول

وقد يقال إن رجلا مثل مرقس أورليوس قد رفعته الأقدار إلى ذروة السلطان والسيطرة الكاملة والنفوذ البعيد المدى كيف تعرض له المتاعب وتساوره الهموم ؟ ولكن الواقع أن حياة مرقس أورليوس كانت حافلة بالأكدار والنكبات ، والحروب والثورات ، والزلازل والطواعين ، وبرغم تجلده القليل النظير وصبره العظيم بلغ به الحال إلى أنه صار يرحب بقدوم الموت ويرى فيه السبيل للخلاص من متاعب الحياة وأحزانها ومشكلاتها التى لا نهاية لها ، ولا يد للإنسان باتقائها ، وكان كثيراً ما يفكر فى أسلافه من الأباطرة الرومانيين ليذكر نفسه أنه بعد قليل سيلحق بهم ، ويصبح مثلهم خبراً من الأخبار وسيرة من السير ، وأن من الخير له أن يؤدى واجبه باخلاص وأمانة ما دام قادراً على العمل ، وكانت فكرة أنه سيموت غداً تحثه على أن يقضى أيامه فى محاولات نبيلة وأعمال مجيدة ، وكان يمر بخياله والده بالتبنى أنطونينوس بيوس والإمبراطور هادريان صاحب الشخصية الغامضة اللامعة والذى أدرك بعينيه الملهمتين ما تنطوى عليه نفس مرقس أورليوس من خير وصلاح وهو غلام ناشئ ، ثم يفكر فى تراجان الفاتح العظيم الذى مد حدود الإمبراطورية ووطد العدالة فى أنحائها وفى غيره من الأباطرة حتى يصل إلى أغسطس قيصر وسلفه يوليوس قيصر ، وكلهم قد أدركهم الموت ، وطواهم الزمن ، وهو سيكون فى آثارهم ، ولكن لا تزال أمامه الفرصة سانحة ليعمل الخير ويسدى المعروف ويحسن السيرة .

وما من شك فى أن مرقس أورليوس من أنبل الشخصيات التى يلتقى بها الإنسان فى رحاب التاريخ وأحبها إلى النفس ، وهو مثل يذكرنا دائماً بالأعالى التى يمكن أن يبلغها الإنسان . برغم ضعفه وغلبة الأهواء عليه ، فقد كان يحكم إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ ، وكانت الملاهى جميعها ميسرة له ، والمتع برمتها قريبة منه ، ولكنه أعرض عن ذلك كله ، وكبح جماح نفسه ، وراضها

أقوى رياضة على مجافاة الشر ، والامعان فى سبيل الخير ، والعمل لاسعاد البشر ما وسعته قدرته ، وسمحت به ظروف عصره ، وأحوال بيئته ، وطبيعة مجتمعه ، ومن سوء حظ البشرية أن أمثاله فى التاريخ نوادر وقليلون .

مولده ونشأته وحياته وتأملاته

ولد مرقس أورليوس بروما فى ٢٦ أبريل سنة ١٢١ ميلادية ، وفى السنة الخامسة من حكم الإمبراطور هادريان ، وكان جده لأبيه م . أنيوس فيروس حينذاك والياً على المدينة ، وقد أمضى طفولته وباكورة صباه فى بيئة غاصة بكبار رجال الدولة ، وكانت روما حينذاك تعد حاضرة العالم ، وقد بلغت الدولة الرومانية أوج العظمة والبهاء ، وعم السلام والرخاء والرغد ، ومنذ حداثته حظى بالاقتراب من ذلك الإمبراطور اللامع القدير وقد خصه هادريان برعايته ، وأسبغ عليه عطفه ، والمعلومات التاريخية عن حياته فى تلك السنوات الباكرة قليلة ، وقد ذكر لنا فى تأملاته أسماء أساتذته والانطباعات التى تركها فى نفسه أصدقاؤه الأوائل ومدرسوه .

وكان والده انيوس فيروس ، وقد مات وهو من كبار ضباط الحرس الإمبراطورى ، مثل تراجان وهادريان سليل إحدى الأسر الرومانية التى انتقلت من إيطاليا إلى أسبانيا واستقرت بها على مقربة من مدينة قرطبة الحديثة ، وكان جده من أعضاء مجلس الشيوخ ، وأبوه من أشراف عصره وقد اختير قنصلا للمرة الثالثة فى سنة ١٢٦ ميلادية ، أما والدته فهى دوميتيا لوسيلا وكانت من أغنى الوارثات فى روما ، وكان والدها قنصلا ، وكانت عمته زوجة تيتس أورليوس أنطونينوس الذى أصبح فيما بعد إمبراطوراً وصار يسمى أنطونينوس بيوس ، وقد تقلب فى أسمى مناصب الدولة وعرف ببساطته واستقامته ونبل أخلاقه .

ونشأ مرقس أنيوس فيروس — كما كان يسمى فى أول أمره — فى حدائق تل كايليان ، وقضى السنوات الأولى من حياته فى تلك الحدائق وفى بيت جده القريب من قصر لاتران ، وعرف منذ كان طفلا بالتزام الجد ، والترفع عن لهو الصغار ، وكان من شأن الدراسة التى تلقاها ليكون رجلا صالحاً للمناصب العالية أن تجعل غلاماً شديد الولع بالمعرفة مثله يبدو أكبر سناً من حقيقته ، وكانت أسرته شديدة العناية بتربية أبنائها وتثقيفهم ثقافة عالية ، وكانت والدته تتحدث اليونانية بطلاقة وتجيدها كتابة ، وقد عنى بلاط هادريان بتشجيع دراسة الثقافة اليونانية ، وعملت دوميتيا لوسيلا على تعليم ابنها الوحيد على الطريقة اليونانية ، وكان للغة اليونانية والثقافة اليونانية تأثير كبير فى نفوس الرومانيين المثقفين فى ذلك العصر ، وكان من أوائل أساتذته فى الأدب اليونانى ايفوريون وجيميناس ، وكان الرومانيون يعنون عناية خاصة بالتربية الأخلاقية ، وقد أشار مرقس أورليوس إلى ذلك فى الكتاب الأول من التأملات قائلا « لقد تعلمت ألا أتحيز للمركبات الخضر أو للمركبات الزرق ، وألا أكون فى جانب المصارعين من تراقيا أو المصارعين من سامنيام ، وأن أتحمل أعباء العمل فى سرور وارتياح ، وأن أقنع بالقليل ، وأن أراقب نفسى ولا أتدخل فيما لا شأن لى به ، وألا أفتح أذنى للواشين فى يسر وسهولة » وقد روعى فى اختيار أساتذته الأولين أن يكونوا ممن يشجعونه على تحرى البساطة بين اغراءات الثراء الجم والمكانة السامية ، وكان أفاضل الرومانيين فى القرن الأول الميلادى والقرن الثانى يعملون على تشجيع أبنائهم على كراهة البذخ والولوع بالمظاهر .

وواضح من إشارات كثيرة فى تأملاته وأخباره أن العنـاية بالشعائر الدينية كانت تحف به منذ مولده وأن عقيدته الفلسفية التى كونها حينما قارب الكهولة

كانت تتضمن احترام الدين ، ويروى أنه وهو فى السابعة من عمره ألحقه الإمبراطور هادريان بكلية سالى وأنه كان من جوقة الشبان الذين كانوا يتغنون ويرقصون حاملين الدروع المقدسة عند الاله مارس فى الربيع والخريف ، وقد أقبل الغلام الناشئ على أداء واجبه الكهنوتى بالعناية والدقة اللتين عرف بهما فيما بعد حينما ولى شؤون الدولة العليا فأجاد الرقص الجاد ، وأتقن حفظ الأناشيد والقاءها ، حتى صار مقدم المرتلين وعميداً للكلية فيما بعد ، وألحقه هادريان بفرقة الفرسان ، وكان هذا الالحاق هو الطريق المتبع فى دخول أبناء أعضاء مجلس الشيوخ إلى الحياة العامة حينما يبلغون السابعة عشرة من عمرهم ، وكان مرقس فى هذا الاختبار وفى غيره يعد كأنه من البيت الإمبراطورى ، كما أن ظهوره فى مسيرة الفرسان فى منتصف شهر يوليو كانت تعد فى نظر الرومانيين ترشيحاً له ليكون ضمن الذين قد يقع عليهم الاختيار فى وراثة العرش الإمبراطورى .

وحان الوقت لذهابه إلى المدرسة ، ونجمت مشكلة فى هذا الموضوع ، فهل يلحق مرقس بمدرسة من المدارس العامة مع سائر الطلبة أو يدرس فى بيته ، وكان كثيراً ما يدور البحث فى روما حول المفاضلة بين الحاق الشبان بالمدارس واختيار مدرسين خاصين لتعليمهم فى منازلهم ، وقد بحث كونتليان هذا الموضوع وكان يؤثر الذهاب إلى المدارس العامة ، وكان والده قد توفى ، ورأى جده لوالده أن يتلقى مرقس تعليما منزلياً ، ولم يضن بمال لجعل هذا التعليم صالحاً ، فدرس له الرسم دايوجنيتاس ،وقد درس تحت إرشاده الموسيقى والهندسة ، وقرأ اليونانية والمؤلفين اللاتينيين على أحسن أساتذة عصره ، فكان أستاذه فى الأجرومية الإسكندر الكوتيومى — وهو يونانى من آسيا الصغرى — وكان من كبار علماء عصره .

وبرغم أنه كان ضعيف البنية فقد عنى بتربيته البدنية ، ومارس الملاكمة والمصارعة والجرى والصيد ولعب الكرة ، وقد علمه دايوجنيتاس ممارسة الزهد وخشونة العيش وترك النوم فى الفراش الوثير وعدم الاصغاء إلى قارئى الكف والسحرة والعرافين والمشعوذين والذين يدعون طرد الأرواح الشريرة ، ولم يقبل مرقس على دراسة الفلسفة إلا بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وكان ينظر إلى الفلسفة باعتبارها أسلوباً فى الحياة لا بوصفها دراسة للمشكلات الغامضة المستعصية ، وقد بدأ يتعود التخفف من الطعام ، وازدراء مباهج الحياة ، وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وأقبل على الدراسة اقبالا شديداً مضنياً نفسه ومكلفها أكثر من طاقتها مما كان يبعث أصدقاءه وبخاصة أستاذه وصديقه العلامة فرونتو على أن يحضوه على التبكير فى النوم والاعتدال فى الدراسة والترفق بنفسه ، وكانوا يضغطون عليه فى بعض الأوقات لزيارة المسرح والاشتراك فى الصيد وحضور حفلات المصارعة ، وكان يلاحظ عليه أنه لا ينى عن التزام الجد فى شتى المناسبات ومختلف الحالات ، وقد اضطر فرونتو إلى أن يلومه على ذلك وينكر عليه مظهر الحزين المهموم وهو فى وسط المجتمع ، ولكنه برغم ذلك كان محبوباً من أصدقائه ومعاشريه لرقة حاشيته وصدق مودته وجميل عطفه وحسن منطقه حتى مع الذين لا يعرفونه ، لقد كان جاداً ولكنه لم يكن خشناً ولا فظاً وكان حيياً ولكنه لم يكن جباناً .

وهكذا كان مرقس أورليوس فى صباه، ويعزو المؤرخون جمال أخلاقه وطيبة نفسه إلى طبيعته أكثر مما يعزونها إلى الأسلوب الذى اتبع فى تنشئته وتربيته

وأنهكت الإمبراطور هادريان الأعباء الجسام التى احتملها والجهود الشاقة التى بذلها فى الرحلات والتعرض للرياح الباردة فى جو بريطانيا وللشمس المحرقة فى سماء إفريقية حتى ابيض شعره ووهنت قوته ودب الضعف

فى بنيته ، فأخذ يفكر فى وراثة العرش ، واختيار الخلف الصالح للنهوض بمطالب الإمبراطورية ، وكان هادريان دائم التعهد لهذا الصبى الذى كان حينذاك قد فقد والده ، فحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره فى ٢٦ أبريل سنة ١٣٦ ميلادية خطب له ابنة لوسياس سيونياس كومودس الذى أعلن بعد ذلك بقليل اختياره وارثاً لعرش الإمبراطورية ، وقد قرب ذلك مرقس أورليوس من تسنم العرش ، ولم يرزق الإمبراطور هادريان أولاداً ، ولم تكن حياته الزوجية سعيدة ، وكان يعد مرقس أورليوس بمثابة حفيده ، وكان هادريان كثير التردد فى اختيار الوارث للإمبراطورية ولكن رأيه استقر فى النهاية على اختيار لوسيوس سيونيوس كومودس ، وكان رجلا حسن الذوق ناضج التجربة ينتمى إلى إحدى الأسر القديمة الكريمة ، وكان واسع الثراء ولكن هذا الاختيار لم يرض الرأى العام ، فقد كان هذا القيصر الجديد رجلا أبيقورى المزاج ، يقرض الشعر ويستطيب ألوان الطعوم والأشربة ، والأرجح أنه كانت له مزايا حملت هادريان على اختياره ، وربما كان لكراهة أعضاء مجلس الشيوخ لهذا الاختيار أثر فى إشاعات السوء التى حامت حول سمعته ، ومهما يكن من الأمر فقد أدركته الوفاة فى سنة ١٣٨ ميلادية ، وعاد هادريان إلى التفكير فى وارث للعرش ، وفكر فى مرقس ، ولكن سنه لم تكن تسمح بالقدرة على حمل أعباء الإمبراطورية فقد كان حينذاك فى السابعة عشرة من عمره ، وأخيراً وقع اختيار هادريان على ايلياس هادريانوس بيوس زوج عمة مرقس أورليوس إنيا فاوستينا ، وكان رجلا ناضج التجربة والسن محبوباً من أعضاء مجلس الشيوخ ، وتم هـــذا الاختيار فى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٣٨ ميلادية ، وفى اليوم نفسه أشار هادريان على انطونينوس بأن يتبنى مرقس اينوس فيروس (مرقس أورليوس) ولوسيوس سيونياس كومودس ابن القيصر الذى سبق ترشيحه للوراثة وكان فى الثامنة من عمره ، وبموجب ذلك كان ورثة الإمبراطورية ثلاثة ، واشتد مرض الاستسقاء بالإمبراطور هادريان ، وأسلم الروح فى التاسع من شهر يوليو سنة ١٣٨ م .

ولم يلق تسنم انطونينوس عرش الإمبراطور معارضة ، وأحسن الإمبراطور التصرف فأطلق عليه لقب « بيوس » أى الصالح الورع ، وكان الرجل خليقاً بهذا اللقب .

وقد كانت السنوات الثمانى الأولى من حكم أنطونينوس بيوس فترة تجربة ودراسة لمرقس أورليوس وفى سنة ١٣٩ م منح لقب « قيصر » ، ولكن لم تتقرر وراثته للعرش من الناحية الشرعية إلا فى سنة ١٤٦ ميلادية ، وألغيت خطبته لابنة إيلياس ، وخطبت له ابنة أنطونينوس بيوس فاوستينا الصغرى ووالدتها عمته فاوستينا ، واستمر مرقس فى تلقى دروسه على أساتذته الخاصين ، وكان يضاف إلى ذلك حضوره لبعض مجالس الإمبراطور وتقلده بعض المناصب العامة ، وقد أحضر له هيرودز أتيكوس من أتينا ليعلمه الخطابة ، كما جاء أبوللونيوس الفيلسوف الرواقى من شالسيدون لتعليمه ، ولم يكن ينقصه إلا التدريب فى الجيش ، وربما كان الحائل دون ذلك صحته ، فقد كان دائماً ضعيف البنية .

وكانت العناية بدراسة البلاغة شديدة فى القرن الثانى الميلادى فى العالم الرومانى ، واقترن ذلك بحركة تجديد فى البلاغة اللاتينية تزعمها فرونتو أحد أساتذة مرقس أورليوس المقربين ، وقد اكتشفت فى أوائل القرن التاسع عشر الرسائل المتبادلة بين التلميذ وأستاذه ، وأهمية هذه الرسائل فى العصر الحاضر أنها ترينا العلاقة الودية الصميمة التى نشأت بين فرونتو والقيصر الشاب ، وهو يقول عنه فى تأملاته « لقد علمنى فرونتو أن الحسد والرياء والنفاق تصحب الطغيان والاستبداد ، وأن هؤلاء الذين نسميهم أبناء البيوتات مجردون من العطف

العائلى » وفى إحدى رسائله إلى فرونتو يقول « إنى أعد نفسى سعيداً لأنك علمتنى قول الصدق » .

واتجه مرقس أورليوس إلى دراسة الأخلاق دراسة جدية وبخاصة تحت ارشاد راستيكاس ، والظاهر أنه اعتقد أنه درس الأدب بما فيه الكفاية ، وتزوج فى سنة ١٤٦ ، وفى السنة نفسها رفعت منزلته إلى مكانة أسمى ، وأخذ يشارك فى الحكم ، ومن ذلك الحين أصبح اليد اليمنى للإمبراطور ، وبدأت مشكلات الدولة تستأثر بوقته ، ولكن ذلك لم يمنعه من قراءة أبيكتيتوس وغيره من الفلاسفة الرواقيين .

وقد شغل فى السنوات ما بين سنة ١٤٥ وسنة ١٦١ بمباشرة واجباته الاجتماعية والسياسية ودراساته الفلسفية والقانونية ، كما أخذت الحياة الزوجية جانباً من وقته .

وقد كان راستيكاس ممن حببوا إليه الفلسفة الرواقية التى كانت توافق مثله العليا ، وكان راستيكاس سياسياً بارعاً ، وجندياً كما كان فيلسوفاً ، وقد وزر لمرقس أورليوس فى السنوات الأولى من حكمه .

وقد ذكر لنا فى الكتاب الأول من تأملاته الأساتذة الذين أفاد منهم ودرس عليهم ، ومنهم الإسكندر الأفلاطونى ، وكلوديوس سيفرس وهو من المشائين أتباع أرسطو ، وقد كان لهؤلاء المفكرين والفلاسفة تأثير قوى فى نفسه ، وقد تأثر كذلك بالإمبراطور الشيخ وكان رجلا نافذ النظر يجيد فهم أخلاق الرجال ، كما تأثر مرقس بالسياسيين ورجال الدولة الذين خالطهم فى بلاط والده بالتبنى .

وكان حكم أنطونينوس بيوس من العهود الصالحة المزدهرة القليلة النظير فى تاريخ البشر ، ويرجع ذلك إلى أنه كان لا يكل من العمل ، ويحسن اختيار مساعديه ويدقق فى هذا الاختيار ، ولا يتساهل أو يلين مع حكام الأقاليم ، وقد تحرى الاقتصاد فى النفقات ، وكانت هذه السياسة الاقتصادية لازمة بعد إسراف الإمبراطور هادريان ، وكانت سياسته الخارجية قائمة على « طلب السلم مع الشرف » ولم يحدث فى عهده سوى حروب هينة الخطب فى بريطانيا وموريتانيا ، وبعض الاضطرابات فى فلسطين برغم أنه ألغى بعض القوانين الشديدة التى فرضها هادريان على اليهود ، ولم يكن أنطونينوس من الراغبين فى سياسة التوسع ، ولذلك اكتفى بالمحافظة على حدود الإمبراطورية ، ومن مأثور أقوالة « أفضل انقاذ حياة رعيتى على محاربة أعدائى » ، ولعظيم ثقة الدول المجاورة لحدوده فى عدالته ونزاهته كانت ترتضيه حكماً فيما ينشب بينها من منازعات ، ولذلك قال عنه بوزانيوس بحق « إنه جدير بأن يدعى أبا البشر لا أباً لبلاده وحدها » وكان مرقس أورليوس يقول عنه « إنه كان يخشى الله دون أن يعتقد بالخرافات»

وفى اليوم السابع من شهر مارس سنة ١٦١ ميلادية مات الإمبراطور الأروع النبيل أنطونينوس بيوس بقصره فى لوريام ميتة هادئة وقوراً جديرة بأن تختم بها حياة كحيـــاته المثالية الرفيعة ، ولما شعر بدنو الأجل ووشك الرحيل أحكم تدبيره ، ونظم شؤون أسرته الداخلية وأصدر أمره بنقل تمثال الحظ المصنوع من الذهب من حجرته إلى حجرة ابنه المتبنى مرقس أورليوس ، وكانت التقاليد المرعية تقضى بوضع هذا التمثال فى حجرة الإمبراطور الجالس على العرش ، وأغمض الإمبراطور الصالح بعد ذلك جفنيه ، وودع عالم الدثور والفناء ، وقد شمل الحزن عليه الإمبراطورية جميعها ، وأقيم له فى كل قلب مأتم ، وتبارت شتى طبقات الأمة الرومانية فى الاحتفال بمنعاه ، وتكريم ذكراه ، والإشادة ببره وتقواه ، والتحدث عن خلاله الكريمة ، ومناقبه الغر وكيف أنه ولى الحكم فأحسن السيرة ، ونشر الأمن والطمأنينة ، ولم يظلم أحداً ، مما بعث مؤرخ الدولة الرومانية الكبير جيبون على أن يقول فى خلال الحديث عن حكمه « يمتاز حكمه بالميزة النادرة ، وهى تزويد التاريخ بمواد جد قليلة ، والتاريخ

فى الواقع لا يزيد إلا قليلا عن تسجيل جرائم البشر وحماقاتهم وكوارثهم » .

وتسنم عرش الإمبراطورية مرقس أورليوس ، وكان فى طليعة أعماله إثبات حق لوسيوس فيروس فى وراثة العرش ، ولم يكتف بجعله « قيصرا » ، بل عمل على أن يكون « أغسطس » وأن يشترك معه فى الحكم وأن يكون نظيراً له برغم فارق السن بينهما وفارق الخبرة والتجربة ، وكان فى هذا الاقتراح مغامرة لا تخلو من الخطورة ، فالمشاركة المتساوية فى الحكم قد تؤدى إلى وقوع الشقاق واتساع شقة الخلاف ، إلا إذا قبل أحد الشريكين أن يظل فى المؤخرة ، أو إذا قسمت الإمبراطورية بينهما ، ولم يكن هذا الحل الأخير مأمون العاقبة ، وسابقة الخلاف بين انطونى واكتافيان كانت لا تزال ماثلة للأذهان ، ويقول الأستاذ المؤرخ بيورى فى هذا الصدد « فى حالة مرقس ولوسيوس كان التوازن محفوظاً ، لأن لوسيوس كان طيب النفس هين الشأن غير طموح ، وراغباً فى ترك المبادأة لأخيه الأكبر منه سناً ، ولو أنه كان قوياً عظيم الهمة لكان الخطر الذى يهدد التوازن قليلا ، لأنه فى تلك الحالة كان مرقس أورليوس يلقى إليه فى سرور بمقاليد الأمور الهامة » .

والتاريخ لا يشيد كثيراً بمآثر لوسيوس ، ولكن مما يذكر له بالتقدير أنه برغم مشاركته فى الحكم لمرقس أورليوس تقبل أن يكون الرجل الثانى وظل يضمر لمرقس الحب والولاء .

وفى السنة التى ارتقى فيها العرش مرقس أورليوس ولدت له الإمبراطورة فاوستينا طفلين توأمين ، وهما كومودس وأنطونينوس ، ولم يعش أنطونينوس الصغير سوى أربع سنوات ، أما فيروس فقد مات بعد توليه الحكم بثمانى سنوات ، وبذلك خلا الطريق لكومودس لوراثة العرش .

وسارت أمور الإمبراطورية على خير ما يرام فترة قصيره ، ولكن توالت بعد ذلك الكوارث والحوادث الفاجعة ، فحدث زلزال رهيب فى مدينة سيز يكاس الواقعة على بحر مار مورا ، وطغت مياه نهر التيبر وأغرقت الأراضى الواقعة على ضفتيه ، وعمت المجاعة ، وهاجمت جيوش البارثيان الحدود الشرقية للإمبراطورية واقتحموا أرمينيا ، وتابعوا تقدمهم إلى سوريا بعد أن هزموا الحاكم الرومانى الذى تصدى لإيقاف تقدمهم ، فاختار مرقس أورليوس حاكمين جديدين لكابادوسيا وسوريا ، واتفق الرأى على ارسال لوسيوس إلى الشرق وبقاء مرقس أورليوس فى العاصمة لتصريف شؤون الإمبراطورية ، واستطاع القائد الرومانى أفيدياس كاسيوس أن يوالى انتصاراته على جموع البارثيان بين سنة ١٦٤ وسنة ١٦٦ حتى تمت للرومان الغلبة عليهم ، وتخلصت الإمبراطورية من الخطر الذى هدد حدودها الشرقية ، ولكن الإمبراطورية تعرضت فى أعقاب ذلك لخطر آخر أشد فتكاً وضراوة ، فقد أصيبت الجنود الرومانية بوباء الطاعون وحملوا جراثيمه إلى بلادهم عند عودتهم إليها ، ومما زاد فى خطورة الوباء الجارف نشوب الحرب بين الرومان وقبائل الماركومانى فى الحدود الشمالية للإمبراطورية ، ولما كان الوباء قد قضى على عدد كبير من سكان البلاد الرومانية لذلك وجد مرقس أورليوس مشقة فى إعداد الفيالق اللازمة للحرب ، واضطر إلى اتخاذ إجراءات شديدة ، ولم يتردد فى إرسال المصارعين والأرقاء وقطاع الطرق مع الجيوش إلى ساحة القتال ، ومن جراء الفقر الذى أحدثه الوباء لم يجد الإمبراطور مناصاً من بيع المجوهرات الإمبراطورية وما فى القصور من التحف والنفائس لتدبير المال اللازم لإعداد الفيالق ، وقد استطاع أن يدفع الخطر عن إيطاليا ، ولكن الحرب نفسها كانت لا تزال فى بداية أمرها ، وقد تراجعت جموع الغزاة إزاء تقدم الجيش الإمبراطورى ، وقدم

الكوادى الطاعة والخضوع ولكن الماركومانى ظلوا يقاومون .

ومات لوسياس فيروس فى هذه الفترة ، واضطر الإمبراطور المسالم إلى قيادة الفيالق والإشراف على إدارة رحى المعارك لرد عدوان الماركومانى والكوادى الذين عادوا إلى محاربة الرومان .

وقد كتب مرقس أورليوس معظم تأملاته على مقربة من نهر الدانوب ، ولم يكتبها للأجيال التالية أو ليقرأها الناس ، وإنما كتبها لتكون له مرشداً ومعيناً فى مواجهة الأزمات فى السنوات الباقية من حياته ، ولم يكن مرقس طوال حياته يتمتع بصحة جيدة ، وكان الأرق ملازماً له ، وربما كان للأحداث التى توالت على الإمبراطورية منذ تسلمهزمامها أثر فى ذلك فقد حملته أكثر مما تحتمل بنيته فزادت حالته الصحية سوءاً ، وهو على الحدود ، وقال عن نفسه فى حديث له مع صاحبه ديوكاسيوس « رجل عجوز ومريض ، ولا أستطيع تناول الطعام دون ألم أو أن أنام بغير عناية » وذاعت أنباء مرضه حتى وصلت إلى الشرق وبلغت مسامع قائد الجيوش الرومانية فى سوريا إفيدياس كاسيوس ، وكان رجلا مثقفاً وقائداً قديراً يحبه مرقس أورليوس ويقدر كفايته ، وقد أقنع هذا القائد الطموح نفسه بوصفه رومانياً من الطراز القديم أن رجلا فلسفى النزعة دمث الأخلاق على رأس الأمور لا يحسن السياسة ، فالفلسفة اليونانية ضارة بالدولة ، ووجد من يعطف على آرائه ويشاركه فيها ، ويروى أنه نبز الإمبراطور بأنه « امرأة عجوز تتفلسف » . وآل به الأمر فى النهاية إلى خلع الطاعة ، وإعلان الثورة ، وكانت التهمة التى قذف بها الإمبراطور هى اسناده مناصب الدولة إلى قوم ليس لهم ضمان من المال والثروة والجاه أو سابقة من الفضل ، وبعضهم لم يحصل علماً ولم يتلق درساً ، .

وكان افيدياس كاسيوس موصوماً بالقسوة ، والوحشية ، ولكن لم يكن هناك شك فى قدرته ، وقد جعلته انتصاراته على البارثيان نظيراً للإمبراطور تراجان فى عقول الناس ، ويروى بعض المؤرخين أن الإمبراطورة فاوستينا زوجة مرقس أورليوس كانت ترى هذا الرأى ، وقد ولدت لمرقس أطفالا كثيرين ، وليس هناك من البراهين ما يكفى لاتهامها بعدم الاخلاص له والشك فى حسن سيرتها ، ولكن من المحتمل إلى حد ما أنه كان يشعر بأنها لا تعطف على أفكاره ، وليس من المستبعد أنها كانت تفكر فى مصير ابنها كومودس إذا مات الإمبراطور المعتل الصحة ، وربما بدا لها أنها ستجد حامياً ومعيناً لابنها فى شخص افيدياس كاسيوس .

وذاعت إشاعات كاذبة عن موت الإمبراطور ، فأيقظت الطموح الهاجع فى نفس افيدياس كاسياس ولم ينتظر حتى يتثبت من صدق الإشاعات المتناثرة ، وخرج على الإمبراطور مطالباً بالعرش ، ووصلت الأخبار إلى الإمبراطور وهو على ضفاف الدانوب فأخفاها فى بادئ الأمر عن جنده ، وفكر فى الخطوة التالية ، وخرج أخيراً من صمته وقال إن الأسف والغضب لا يغنيان فتيلا ولو أنهما طبيعيان فى شؤون البشر ، والأمور تسير فى مجراها تبعاً للعناية المقدسة ، ولكن من دواعى الاستنكار قيام الحرب الداخلية وبخاصة إذا تولى كبرها رجل كان يوده الإمبراطور ، فهل هناك سبيل للثقة بالناس والإيمان بهم ؟

وود الإمبراطور أنه لو كان فى الامكان دعوة كاسيوس إلى المناقشة وعرض قضيته أمام الجيش أو مجلس الشيوخ ، وقال إنه كان مستعداً للتخلى عن الأمر لو ظهر صواب هذه الخطة ، « لأننى لم أستمر فى احتمال مشاق العمل والتعرض للخطر إلا للصالح العام ، ولقد قضيت الكثير من الزمن هنا بعيداً عن الحدود الإيطالية وأنا رجل فى الشيخوخة يعانى المرض » .

ولكن لم يكن من الميسور تدبير مثل هذا الاجتماع ، فلا بد إذن من الالتجاء إلى السلاح ، وبالرغم من أن كاسيوس كانت له شهرة فى قيادة الجيوش وإحراز الانتصارات إلا أن الفيالق الشرقية كانت تعرف أنها لا قبل لها بمقاومة الفيالق القادمة من الغرب ، وفضلا عن ذلك فان بعض القواد الأكفاء فى الشرق لم يكونوا راضين عن سلوك كاسيوس .

وقال الإمبراطور لبعض خاصته إن كاسيوس قام بالثورة مسوقاً باشاعات باطلة ومتى تبين له بطلان هذه الإشاعات فإنه سيندم ويعود إلى الطاعة ، وأخشى أن ينتحر أو أن يغتاله أحد جنوده ويفلت من الإمبراطور الانتصار الأكبر ، وهذا الانتصار هو العفو عن كاسيوس والصفح عن زلته !

واستدعى مرقس أورليوس ابنه كومودس من روما ، وعقد صلحاً مع البرابرة ، ورفض المساعدة التى تقدموا بها للاشتراك فى اخماد الثورة ، وارتحل إلى الشرق ، ولم تقع معارك ، فقد اغتيل كاسيوس واحتز رأسه ، وذهب اللذان توليا قتله إلى مرقس أورليوس ليقدما له الرأس ، فأبى الإمبراطور أن يرى ذلك الدليل على انتهاء حياة كاسيوس ، وأمر بدفن الرأس ، وعامل الولايات التى اشتركت فى الثورة فى لين ورفق ، وتبع ذلك موت زوجته فاوستينا ، وكان لوفاتها وقع شديد فى نفسه ، فأنشأ بعض المعاهد لإيواء البنات اليتامى تكريماً لذكراها .

وفى حياة الإمبراطور مرقس أورليوس مسألة شائكة لا يزال يدور حولها البحث ويختلف الرأى ، وهى موقفه من الاضطهاد الذى أصاب المسيحيين فى عصره ، وقد حاول بعض المؤرخين أن يشكوا فى صلة الإمبراطور بحوادث الاضطهاد التى وقعت فى مدينة ليون ، ولكن يظهر أنه من الثابت أن مرقس أورليوس قد أقرها — كما يقول ماثيو ارنولد وهو أحد المعجبين بالإمبراطور الفيلسوف — والواقع أن جانبا مما أصاب المسيحيين فى عصر الأباطرة المصلحين من أمثال تراجان وأنطونينوس بيوس ومرقس أورليوس كان يرجع إلى تصورهم الخاص للمسيحية التى كانوا يحاولون إطفاء نورها وإخماد أنفاسها ، فقد كانوا يرونها من الناحية الفكرية والفلسفية شيئاً سخيفاً لا خير فيه ولا غناء ، وكانوا يعتقدون أنها من الوجهة الأخلاقية تغرى بالفساد ، وتبعث على الشر والإجرام ، أما من الناحية السياسية فكانوا يرونها هادمة للدولة مفككة لعرى المجتمع ، وكانت الفكرة الغالبة هى أن المسيحيين جمعية سرية تعمل فى الخفاء لتحقيق أغراض مريبة ضارة ، وكانت جمهرة الشعب الرومانى لا تشك فى أن هؤلاء المسيحيين كفرة ملاحدة ، يستحلون المحرمات ، وينتهكون حرمة الآداب ، ولا يتورعون عن أكل لحوم البشر ، وكانت الديانة الرومانية من ناحية أخرى بغيضة إلى نفوس المسيحيين ، يمقتونها أشد المقت ، ولا يكتفون فى معارضتها بالمقاومة السلبية الصامتة ، ولا يمتنعون عن تقديم القرابين فحسب ، بل يحرضون غيرهم من الطوائف على أن يسلك مسلكهم ، ولا يقنعون بترك تماثيل الآلهة ، بل يعمدون إلى اسقاطها من فوق القوائم التى ترتكز عليها ، ولذا كان الرومانيون يمقتون المسيحيين ويسيئون بهم الظن ، وكانت الاجتماعات التى يعقدها المسيحيون مثاراً لأعاجيب الروايات وغرائب الظنون فى الأوساط الرومانية ، وكانت كراهة الشعب الرومانى للمسيحيين من القوة والتأصل بحيث كان يجد الحكام والأمراء صعوبة كبيرة فى كبح جماحها وصد تيارها الجارف ، وكان من السهل أن تنتقل هذه الآراء والمعتقدات من العامة إلى الخاصة .

وقد يعجب الإنسان كيف أن تعاليم سامية كتعاليم السيد المسيح تستهدف لمثل هذا التصوير الخاطئ والعرض المشوه ، ولكن السبب الحقيقى هو أن المسيحية كانت روحاً جديدة فى العالم الرومانى ، وكان مقدراً أن هذه

الروح الجديدة ستزلزل قواعده وتهز كيانه ، وكانت هذه الروح الجديدة تشبه الروح الديمقراطية فى العالم الحديث ، ومثل كل روح حديثة ينفر منها الناس فى مستهل أمرها نفوراً غريزياً لأنها تليح لهم بعالم جديد مجهول ، ولا عجب أن تلقى الروح الجديدة شدة ومقاومة من العالم الذى يشعر شعوراً غامضاً خفياً بأنها ستقلبه رأساً على عقب ، وتقوم على أنقاضه ، وكانت الدولة الرومانية شديدة الحرص على توطيد نفوذها ، وتقرير سلطانها ، فهى لا تسمح بأن تقوم داخل حدودها وبين بصرها وسمعها جماعة تتحداها ، وتخلع طاعتها ، وتعمل على هدمها .

وكان الإمبراطور مرقس أورليوس بحكم مركزه يعد حامى التقاليد الرومانية والقيم على الدولة وشؤونها ، ولم يكن فى وسعه بحكم نشأته وثقافته وتقاليد قومه ومثلهم العليا أن يرى المسيحية على حقيقتها وينفذ إلى لبها ويقدر ما فى آدابها من سمو وتسامح وإنسانية ، وكان حتما عليه أن يراها شيئاً مناقضاً للنظام ، هادماً للمجتمع ، فواجب الدولة مقاومته ، وكسر شوكته ، والقضاء عليه ، وهو بحكم مركزه أول من يفرض عليه الإشراف على ذلك رعاية للأمانة التى يحملها ، وصيانة لمكانة الدولة ، ولكننا نرى برغم ذلك كله أن هذا الإمبراطور الحكيم الفيلسوف العظيم القلب واللب قد أساء بعض الإساءة عن غير قصد إلى المسيحية ، وقد تغتفر هذه الإساءة لغيره من الذين لا يتعمقون الأمور ولا يطيلون البحث والدراسة ولا يراجعون أنفسهم فيما يصدر عنهم من الأعمال ، ولكنه كان رجلا ، الكمال بغيته ، والنزاهة شيمته ، والحق طلبته ، فهو لا يقاس على غيره ، ويطلب منه أكثر مما يطلب من سواه ، وقد يكون برئ الساحة واضح العذر ، ولكنه مع ذلك كله سيئ الحظ فى هذه المسألة .

وليست هذه أول مسألة لازمه فيها سوء الحظ ، وتنكر له فيها القدر ، فقد أساء إليه الحظ إساءة أخرى شابت صفو حياته وشغلت تفكيره فى السنوات الأخيرة من حياته ، وأقصد بذلك نكبته بابنه كومودس ذلك الفظ الغليظ القلب المنتكس الطبيعة ، وقد أشار الإمبراطور إلى بعض ما عاناه منه فى قوله فى تأملاته « ما الذى يستطيع أن يفعله شر الناس من الأعمال السيئة إذا ظللت مصراً على العطف عليه والاحسان إليه ؟ وإذا ترفقت فى لومه حينما تلوح الفرصة وألقيت عليه فى اللحظة التى يحاول فيها الإساءة إليك أمثال هذا الدرس فى غير غضب « اعرض عن ذلك يا ولدى فقد ولدنا لغايات أخرى ، إنك لا تسئ إلى وإنما تسىء إلى نفسك . وأبصره بلباقة المبادئ العامة التى تقضى بأن تكون هذه هى القاعدة ، وأنه لا النحل يعمل عمله ولا الحيوانات التى تعيش فى القطيع ، ولا أتنقصه ولا أهينه وأسخر به ، بل أقول كل ما أقوله له بلهجة الوامق العاطف كأنه صادر عن قلب لم تؤثر فيه مرارة الغضب ، ولا أحدثه كأنى معلم المدرسة أو لأكسب إعجاب الحاضرين ، وإنما أستعمل نفس الصراحة التى أتحدث بها إليه حينما نكون منفردين معاً » .

ولكن هذا العطف الأبوى والترفق الفلسفى والنصح البليغ لم يصلح لسوء الحظ من شأن نجله المنكود كومودس وأصبح من الواضح قبل وفاة مرقس أورليوس بخمس سنوات أن ابنه ووارث عرشه لن يكون صورة أخرى له ، وأنه لن يحتذى مثاله ويسير سيرته حتى شك الناس فى بنوته ونسبته إليه ، ولكن ليس هناك من الأدلة ما يكفى للتشكيك فى أبوته ، ويرى بعض الباحثين أن كومودس مل التعليمات الأخلاقية والنصائح الأدبية التى كان يقدمها له والده وضاق بها ذرعاً وأن هذا الشعور أحدث فى نفسه نوعاً من رد الفعل جعله يتجه فى الاتجاه المعارض لاتجاه والده .

ويقول رينان إن مرقس أورليوس كان أعرف من غيره باستحالة استخراج أى شىء من هذا الكائن الوضيع ، وبرغم ذلك لم يدخر وسعاً فى تربيته ، وألقى

أمامه المحاضرات أحسن الفلاسفة ، وكان يصغى لهم وهم يعلمونه ، ويسمح لهم بالمضى فى القول وقد نال منه السأم وبرزت أنيابه ، ولكن إذا كان الإمبراطور على بينة من أخلاق ابنه فكيف قبل أن يكون خليفته ولم يقدر خطورة وضع مثل هذا الإنسان على رأس الأمور وتسلمه مقاليد الحكم ؟ أليس فى ذلك اهدار لمصلحة الدولة والوطن والإنسانية ؟ أما كان فى وسعه أن ينحيه عن وراثة العرش ويختار لها غيره ممن يصلحون لتولى الحكم ؟ ولكن الظاهر أن مرقس أورليوس الطيب النفس كان يرى أن ابنه حينما يضطلع بأعباء الحكم يقدر تبعاته الجسام ، وأن هذا التقدير يصلح منه ويسمو به ، وليس من الجرائم أن يحسن الإنسان الظن ويؤمل خيراً ، وفضلا عن ذلك فانه كان من الصعب أن يلغى الإمبراطور ما سبق أن أقره ووافق عليه مجلس الشيوخ والرأى العام الرومانى ، وهكذا شاءت الأقدار أن يكون شر الناس خليفة لخيرهم .

وكانت تنتظر هذا الرجل الرصين الوديع فى سنواته الأخيرة آلام أخرى ، وتجارب جديدة مرة قاسية ، فقد تخطف الموت أصدقاء طفولته ، وأخدان شبابه ، وأصبح هؤلاء السادة الغطارف الذين جمعهم حوله أنطونينوس ونعم بصحبتهم مرقس أورليوس طى الأرماس ، وأحس أنه فى جيل لا يفهمه ، وأخذ يطيل التفكير فى الموت ، ويمعن فى تحليل الحياه .

وفى العاشر من شهر مارس سنة ١٨٠ ميلادية مرض الإمبراطور مرضه الأخير ، واستعد للقاء الموت ، وأمسك عن الطعام والشراب ، واستدعى ابنه كوودس ورجاه أن يتابع الحرب القائمة حتى يصل بها إلى النهاية .

وفى اليوم السادس من مرضه استدعى أصدقاءه ، وخاطبهم بلهجته المألوفة وسخريته الخفية المهذبة ، وتحدث إليهم عن غرور الحياة وباطلها وعدم الاكتراث بالموت ، فتفجرت عيونهم بالدموع وسالت عبراتهم ، فقال لهم « لماذا تبكون من أجلى ؟ لا تفكروا فى غير إنقاذ الجيش ، وكل ما فى الأمر هو أننى أسبقكم . . فالوداع » .

وسئل من يوصى بابنه ؟ فأجاب « أوصيكم به إذا وجدتموه جديراً بذلك ، وأوصى الآلهة الخالدين » .

وحزن الجيش عليه حزناً شديداً لأنه كان يحب الإمبراطور الفيلسوف ويعبده عبادة ، وكان يعرف المنحدر الذى ستسقط فيه الإمبراطورية بعد موته ، وكان لا يزال به بقية من القوة تكفى لأن يقوم بتقديم نجله للجيش ، وقد مكنته قدرته على الاحتفاظ بهدوئه والسيطرة على نفسه برغم الآلام التى يعانيها من أن يظل جلداً رزيناً حتى فى تلك اللحظة القاسية .

وفى اليوم السابع شعر بقرب الخاتمة ، وكان لا يرى غير نجله ، وأبعده بعد دقائق خشية أن تصيبه عدوى المرض الذى أصابه ، وربما كان ذلك مجرد عذر ليريح نفسه من محضره البغيض ، ثم غطى رأسه كأنه يحاول النوم ، وفى الليلة القادمة أسلم الروح ، ونقلت جثته إلى روما ، ودفن فى مقبرة الإمبراطور هادريان ، وكان كل فرد من أفراد الشعب يشعر بأنه قد فقد أباً يشجيه فقده أو أخاً يؤلمه رحيله أو ابناً يشق عليه موته أو صديقاً يوجعه افتقاده ، وفى يوم الاحتفال بدفنه لم يكن يسفح عليه دمع فقد كان جميع الناس يعتقدون أن مثله لا يموت ، وأنه قد انتقل من الحياة الأرضية الفانية وعاد إلى الآلهة التى أعارته الأرض حيناً من الزمن !

وكان الذى تمكنه أحواله من اقتناء تمثال الإمبراطور فى منزله ولا يفعل ذلك يذم ويلام ، وكان جميلا من الناس ومشرفاً للإنسانية هذا الوفاء النزيه والتقدير الصادق البرئ لهذا الرجل العظيم !

ويقول رينان فى كتابه عنه تعليقاً على ذلك « لم تكن هناك عبادة أكثر شرعية من ذلك ، وهى لا تزال عبادتنا إلى اليوم ، وكل منا يحمل فى نفسه الحزن على مرقس أورليوس كأنه قد مات بالأمس ، فيه جلست

الفلسفة على العرش ، وبفضله حكم الدنيا حيناً من الزمن أحسن رجال عصره وأعظمهم ، وكان من الخير حدوث هذه التجربة ، فهل تحدث هذه التجربة مرة أخرى ؟ وهل تبلغ الفلسفة الحديثة فى دورها مرتبة الجلوس على العرش كما بلغت الفلسفة القديمة ؟ وهل يكون لها مرقس أورليوس الخاص بها ويحفه رجال من أمثال فرونتو وجويناس راستيكاس ؟ وهل تصير أمور البشر مرة ثانية إلى أيدى أعقلهم وأكثرهم حكمة ؟ » .

وقد ترك مرقس أورليوس للإنسانية كتاباً يعد من أسمى الكتب التى كتبها القدماء وأبقاها على الزمن ، وهو كتاب « التأملات » وليس هذا الكتاب مجرد مجموعة أفكار فلسفية أو خواطر أخلاقية صالحة للوعظ والتبشير والهداية والارشاد ، وإنما هو قصة نفس كانت تنشد الحقيقة وتعنى بمشكلات الحياة الكبيرة ، وتدعيم التفكير فى معنى الحياة والموت ، وهو مناجاة مستمدة من مأساة حياة رجل كبير القلب ، راجح العقل ، لا يريد أن يذيع عقيدة أخلاقية أو أن يقدم لك مذهباً فلسفياً ، ولكنه مع ذلك يستولى عليك ، ويلمس قلبك .

وقد انتهى إلى فكرة أن على الإنسان أن يخمد رغباته إذا أراد أن يكون سيد نفسه ، وهى نفس النتيجة التى انتهى إليها شوبنهاور والبوذيون ، وهى نوع من الانتحار الداخلى وكبت الرغبات والميول والأهواء .

والوصية التى يوصينا بها الرواقيون والبوذيون وشوبنهاور ومرقس أورليوس هى أن نعمل على أن نكون مثل الأحجار التى لا تحس شيئاً ، ولكن إذا كانت الأحجار لا تحس ولا تشعر وبذلك تتخلص من الألم فهى كذلك لا تستشعر الحب ولا تعرف الإيمان ، وقد كان قلب مرقس أورليوس حافلا بالحب والعواطف الإنسانية الكريمة ، عامراً بالإيمان بعدالة الكون وقداسته ، وواضح أن هناك نوعاً من أنواع التناقض ، ولكنه تناقض مقبول ، لأنه أنقذه من جفاف الشعور وجمود الحس وقساوة القلب التى استهدف لها الرواقيون ، فقد حاولوا إخماد العواطف نزولا على حكم العقل ، وكان لزاماً عليهم أن يخمدوا كذلك الحب والعطف ، أما مرقس أورليوس فقد سلم بوجود حرية الإرادة ليستطيع الصفح عن الغير ، وكان يرى كذلك أن الخير والشر طبيعيان كازدهار الورد فى الربيع ، وهذا التناقض أفسد عليه مذهبه الفلسفى ، ولكنه أفاض على تفكيره من ناحية أخرى روحاً إنسانية جذابة .

ولم تنقذه من صرامة النسك وظلام اليأس طيبة القلب وحدها ، وإنما اشترك معها فى الانقاذ إيمانه بقوة العقل الإنسانى ، فهو يقول لنفسه فى تأملاته « اعمل على أن تتذكر على الدوام أنك رجل وأنك رومانى ، وليكن ديدنك أن تؤدى أعمالك فى رزانة غير متكلفة وبانسانية وحرية وعدالة » .

ويقول كذلك « إن السلطة المقدسة ليست سوى الروح والعقل اللذين يملكهما كل إنسان » فالهه هو الضمير الإنسانى ، وليس له إيمان محدد فيما يخص الآلهة سوى هذا الإيمان .

وهو لا يؤكد شيئاً ، ولأفكاره دائماً وجهان ، وجه يفترض وجود الله والروح ، ووجه آخر يفترض أنهما غير موجودين ، فهو يقول مثلا « الدنيا إما أن تكون أخلاطاً من الذرات تجتمع حيناً وتفترق حيناً آخر وإما أن تكون وحدة منسقة خاضعة لقوانين النظام والعناية ، فاذا صح الرأى الأول فلماذا أطلب البقاء حيث الطبيعة فوضى والأشياء تخبط خبط العشواء فى اجتماعها وتفرقها ؟ ولماذا أعنى بأى شىء آخر غير عودتى إلى عنصر الأرض فى أسرع وقت مستطاع ؟ ولماذا أجشم نفسى المتاعب وأسومها العذاب ؟ فلأعمل ما أريد فان عناصرى ستتبدد وتتفرق ، ولكن إذا كانت هناك عناية فانى سأكبر حاكم الدنيا العظيم وأطمئن إلى رعايته وألوذ بجاهه » .

ويقول فى مناجاة أخرى « اعمل وتحدث وفكر كأنك معرض للموت فى كل لحظة من لحظات حياتك وماذا فى الموت مما يروع ويهول ؟ إذا كانت هناك آلهة فانك لن تعذب لأنها لا تمسك بسوء ، وإذا لم يكن هناك آلهة أو كانت لا تحفل بالمخلوقات الفانية أمثالنا فان عالماً بغير آلهة ولا عناية إلهية لا يستحق أن يعاش به ، ولكن الواقع أن وجود الآلهة واهتمامها بأمور البشر من المسائل التى لا خلاف فيها ، وقد منحت الإنسان القدرة على تجنب الكوارث الحقيقية . . » .

ولم يستطع مرقس أورليوس أن يخرج من هذه الحيرة ، ويطمئن إلى حل نهائى لهذه المشكلة ، وهذا هو مصدر مأساة حياته الأخلاقية ، فكان هناك صراع دائم فى نفسه بين اليقين وبواعث الشك ، وكان هذا اليقين الذى لا يفتأ يطارد الشك ويغالبه مصدر همه ونصبه وعذابه وآلامه ، وقد ظل كذلك إلى النهاية يشك ويؤمن ، ويحارب إيمانه الشكوك ، وقد مات وهو فى غمرة الهيجاء ونقعها المثار ، ولكنه لم ينهزم !

وقد كان فى بعض الأحايين يسمو إلى القمم العالية حيث الصمت الذى لا تصل إليه ضجة الأرض وضوضاؤها ، والهدوء الذى لا تشوبه عواصف الأهواء والشهوات ، والحكيم الذى يظل متوغلا فى تلك الأعالى والمرتفعات لا مفر له من أن يقضى على إرادة الحياة فى نفسه ، وإذا قضى الإنسان على إرادة الحياة فى نفسه فقد قضى كذلك على إرادة الفضيلة وإرادة الخير ، وقد استطاع مرقس أورليوس أن يقمع أهواءه ، ويروض جماح نفسه ، ولكن نبع الحب والعطف ظل فى نفسه عذباً فياضاً يذكرنا بتلك الأسطورة التى تروى عن ساكيامونى البوذا ، وذلك أنه فى خلال السنوات الطويلة التى قضاها فى الصحراء جالساً بغير حراك كانت عيناه معقودتين بالسماء ، وكان دائم التفكير فى الأبدية حتى قارب الوصول إلى النرفانة ، وتصلبت مفاصل ذراعيه الممدودتين وطارت فوقه خطاطيف ، فلما رأته ثابتاً لا يتحرك ظنته حجراً أو جذع شجرة ، فعششت فى راحة يده ، وكانت تعود إليها فى كل ربيع ولكنها فى يوم من الأيام طارت لكى لا تعود مرة ثانية ، فلما عرف ذلك هذا الذى أخمد فى نفسه كل رغباته ، وقمع إرادة الحياة والذى أصبح لا يألم ولا يفكر ، واستمتع بهدوء النرفانة عز عليه فراق الخطاطيف فطفرت الدموع من عينيه .

وهكذا القلب البشرى — كما يقول الكاتب الروسى الكبير مرزكوفسكى فى مقاله القيم عن مرقس أورليوس — « لا يصل إلى الهدوء المطلق والحكمة الخالصة لأنه لا يستطيع أن يحرم على نفسه الحب » وربما كان هذا الضعف هو مصدر قوته وآية مجده وعظمته .

ويعد مرقس أورليوس أحد كبار ممثلى الفلسفة الرواقية التى وضع أساس مذهبها زينون القبرصى حوالى سنة ٢٩٠ قبل الميلاد فى أثينا وكان لهذا المذهب تأثير بعيد المدى فى تاريخ الدولة الرومانية ، وقد استجاب الرومان لهذا المذهب الفلسفى بوجه خاص لأن نزعته العملية كانت تلائم المزاج الرومانى ، فالرومانيون كانوا يؤثرون حياة العمل على حياة الفكر ، والفلسفة الرواقية لا توجه عنايتها إلى مشكلات ما وراء الطبيعة وإنما تتناول مشكلات الحياة الراهنة وتحاول أن تضع أساساً أخلاقياً عملياً لحياة الإنسان ، وتبصره كيف يفيد من حياته فى الكون على الوجه الأكمل ، وقد استأثرت هذه المشكلة بجانب كبير من تفكير أفلاطون وأرسطو ، ولكنهما يربطان بحوثهما الأخلاقية والسياسية ببحوث ما وراء الطبيعة ، فى حين أن الفلسفة الرواقية تقرن الفلسفة بواقع الحياة ، وتعنى بالمسائل الفكرية من ناحية تأثيرها على الحياة العملية ، والفضيلة عند الرواقيين قائمة على أن يعيش الإنسان طبقاً لقوانين الكون ، وقد حاولوا تفسير العالم الطبيعى لكى يحرروا أذهان الناس من الخوف والاعتقاد بالخرافات ، وآثروا النظرية الذرية التى أيدها ديموقريطس لأنها تجعل لكل شىء سبباً

طبيعياً ، على أن مرقس أورليوس لم يكن رواقياً خالصاً فقد أخذ من المذهب الرواقى ما يلائم تفكيره ويرضى نوازعه ، وأفاض على الرواقية من شخصيته ما لطف من جفائها وألان من حدتها ، واستخلص جوهرها ، وعاش حياته طبق ما اقتبسه من تعاليمها وارتضاه ليكون له منهج حياة ، ولقد وسع مرقس أورليوس نطاق الفلسفة الرواقية وبث فى تعاليمها روحاً إنسانية كانت تفتقدها ، وقد سجل خواطره فى كتاب التأملات الذى كتبه على الأرجح لنفسه لا ليقرأه الناس .

ومن المشكلات التى حاولت المذاهب الفلسفية أن تواجهها مشكلة أصل الشر ، وخطورة هذه المشكلة أنها أول اعتراض يوجه إلى مسألة وجود العناية الالهية الشاملة للكون ، وقد واجه الرواقيون هذه المشكلة فى جرأة ، وأنكروا الوقائع ، وقالوا إن العالم كامل لا عيب فيه ولا نقص ، وكل مانسميه شراً لازم لوجوه الخير العام ، ومرقس أورليوس يقر الرواقيين على هذا الرأى ويقول « هل قثاؤك مر الطعم ؟ إذن دعه ، وهل هناك شجر شائك فى طريقك ؟ إذا كان الأمر كذلك فتجنبه ، وإلى هنا تكون قد أحسنت الصنيع ، ولكن لا تسأل « ما هذه الدنيا التى تحوى مثل هذه الأشياء ؟ وذلك لأن الفيلسوف الطبيعى سيضحك منك ، وسيكون فى احتجاجك هذا من الصواب مثل ما فى محاولة إيجاد خطأ فى عمل النجار لأنه يساقط النشارة أو عمل خائط الثياب لوجود خرق فى حانوته » .

ومعنى ذلك أنه ليس هناك شر مطلق ، والشر الموجود تابع للخير ، ويقول مرقس أورليوس « إن الشر بوجه عام لا يضر بالكون ، وكذلك فى الموضوعات الخاصة لا يؤذى أحداً ، إنه لا يتعب إلا من كان يستطيع أن يتخلص منه فى أى وقت يشاء » .

وفى بعض الخواطر لا يشير مرقس أورليوس إلى القانون العام وهو يعده العناية الإلهية التى تشمل الكون برعايتها ، وإنما يشير إلى وجود الآلهة الذين يوجهون الأشياء كلها أحسن توجيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يؤكد تأكيداً قاطعاً ، فهو متردد بين الآلهة وبين الذرات ، أو بين العناية الالهية وبين المصادفة ، وهو يكثر من ذكر العناية الالهية ، ولكنه يرينا فى الوقت نفسه أن الإنسان يستطيع أن يكون قانعاً فى ظل المصادفة

ولا يتحدث عن الحياة الأخرى حديث الواثق المستيقن ، والروح لا تهلك فى رأيه لأنها جزء من الألوهية ، ولكن مسألة الحياة الأخرى من المسائل التى لم يكثر من إثارتها ، والحياة الحاضرة هى مناط اهتمامه ، وهو مع ذلك يستخرج من زوال الحياة وقصر مدتها معنى أخلاقياً نبيلا ، فلا يقول « لنأكل ونشرب لأننا سنموت غداً » وإنما يقول « لنحسن الاستفادة من هذه الحياة فليس لنا حياة سواها » وعزاؤنا الوحيد عن الموت هو فى شعورنا بالقيام بالواجب المنوط بنا ، فاذا كانت حياتنا صالحة خيرة فلنقنع بالموت سواء أكثرت سنوات عمرنا أم قلت ، وكان أبيقور يوصى أتباعه بأن يشعروا وهم يودعون الحياة شعور الضيف الخارج من المأدبة وقد شبع واستمتع ، ولكن الرواقيين يرون أن يكون وداع الناس للحياة كوداع الممثل للمسرح بعد أن يقوم بأداء دوره ، ويقول مرقس أورليوس فى تأملاته « اعرنى سمعك أيها الصديق ، لقد كنت من مواطنى هذه المدينة العظيمة ، فماذا يهم أقضيت بها خمس سنوات أم قضيت ثلاث سنوات ليس غير ؟ إذا كنت قد راعيت قوانين التعاون فان طول الزمن أو قصره لا يحدث فرقاً ، فما وجه الغبن إذا كانت الطبيعة التى أنبتتك هنا تأمر بازالتك ؟ لا تستطيع أن تقول إن الذى أقصاك طاغية مستبد أو قاض ظالم ، كلا ، إنك تترك المسرح دون أن يلحقك ظلم كما يتركه الممثل الذى أخلى سبيله سيد الحفل ، ولكنك تقول إننى لم أشترك إلا فى ثلاثة فصول ، والمسرحية تتم فى خمسة فصول ، ولكن فى الحياة تكمل المسرحية الفصول الثلاثة ، والذى أمر بتمثيل المنظر الأول أصدر أمره

بانهاء المسرحية ، ولست محاسباً على ادخالك المسرح أو على إخراجك منه ، فقر عيناً بانسحابك فان الذى أخرجك راض وقانع مثلك » .

ويقول فى خواطره عن قبول الإنسان لما يكون « كل ما يحدث عادى ومألوف مثل الورد فى الربيع أو مثل التفاح فى الخريف ، ومن هذا القبيل الأمراض والموت والنمائم والخداع وكل ما يسر الحمقى أو يثير نقمتهم » .

ويعود إلى تأكيد ذلك فى خاطرة أخرى فيقول « لا شيء يصيب الإنسان إلا وفى استطاعته أن يحتمله ، وبعض الناس قد تعرضوا لمحن جد قاسية واستطاعوا احتمالها بشجاعة دون أن تنال منهم إما لأنهم أقل فهما لها وإما لأنهم عندهم كبرياء أكثر من غيرهم ،ومما يزرى بنا وينتقص من كرامتنا أن يكون الجهل أو الغرور أجدى علينا من الحكمة » .

ويقول « كل ما يصيبك قد قسم لك من الأبدية ، وهذه السلسلة من الأسباب التى يتكون منها القدر ، قد ربطت وجودك بوقوع الحوادث التى تحدث لك » ويتحدث فى الكتاب الأول عن ما لأقاربه وأساتذته عليه من فضل فيقول عن جده لأبيه « لقد كان جدى لأبى فيروس قدوتى فى النزوع إلى الخير ومجافاة الغضب » ويقول عن أبيه وأمه « بتذكرى لأخلاق والدى تعلمت أن أكون متواضعاً موطأ الكنف ، وأن أكون ناهض الهمة ، أما والدتى فقد علمتنى احترام الدين وأن أكون كريماً سخياً ولا أمتنع عن الإساءة إلى أى إنسان فحسب ، بل لا أجيل بفكرى خاطر الإساءة إلى أحد على الاطلاق ، ومنها تعلمت أن أعيش عيشة بسيطة بعيدة عن البذخ والاسراف ، كما أشكر جدى الأعلى لوالدى لأنى لم أذهب إلى مدرسة عامة ، بل أحضر لى مدرسين صالحين وتعلمت أن على الإنسان أن ينفق بسخاء فى هذا السبيل » .

ويشيد بما أفاده من تعليم دايوجنيتس وراستيكاس وأبولونياس وسيكتوس وفرونتو والاسكندر الأفلاطونى وغيرهم .

ووجه مرة إلى نفسه هذا اللوم « لقد نسيت رابطة القرابة المقدسة التى تربط كل إنسان بالنوع البشرى ، وليست هى قرابة الدم والولد ، وإنما هى قرابة المشاركة فى نفس الفهم والادراك ، وقد غاب عنك أن الروح العاقلة لكل إنسان مستمدة من الله ، وأننا لا نملك ما لنا ، فأطفالنا وأجسادنا وأنفسنا كلها مستعارة من السماء ، كل ذلك على ما يظهر قد نسيته » .

وفى يوم آخر يظهر أن الناس أفرطوا فى الإساءة إليه فقد كتب فى سجله الخالد حينما ثاب إلى نفسه فى هدأة الليل « هكذا نظام الطبيعة ، والناس من هذا الطراز لا يستطيعون العدول عن ذلك ، وليس لهم فيه حيلة ولا عنه مذهب ، وتعجبنا من ذلك يشبه دهشتنا حينما نرى شجرة التين وهى تحمل التين ، وتذكر أنك أنت وخصمك بعد فترة جد قصيرة سيمضى بكما الموت وسرعان ما يغمر اسميكما النسيان » .

وفى الخاطرة الثلاثين من الكتاب السادس يقول لنفسه « حاذر حتى لا تصبح قيصراً ، وتصطبغ بتلك الصبغة ، وهذا من الأمور التى يسهل الانغماس فيها ، فانظر لنفسك ، وكن صريحاً مخلصاً مستمسكاً بالفضيلة ملازماً التواضع متحرياً الجد والوقار ، وانشد العدل والصلاح ، وترفق بالناس ، وعاملهم باللين ، واجهد فى أداء الواجب ، واعمل على أن تكون كما ترضى لك الفلسفة ، واحترام الآلهة ، وادفع السوء عن البشر ، وهذه الحياة قصيرة المدى ، وكل ما تستطيع أن تغنمه من فوائدها هو التقوى والأعمال النزيهة الخالصة ، ولتكن قدوتك فى أعمالك جميعاً أستاذك أنطونينوس ، فتشبه به فى اتباعه الدائم لما يوصى به العقل ، وسيره على منهج واحد فى مختلف الظروف والأحوال ،

وطهارة نفسه ، وهدوء نظرته ورقة روحه وعذوبتها ، واحتقاره للشهرة والمظهر الكاذب ، وحرصه الكريم على أن يتعرف عمله ويستجلى أسراره ، ويخلص إلى دخائله ، وانظر كيف كان لا يغادر موضوعاً من الموضوعات إلا بعد أن يوسعه بحثاً وتنقيباً ويحيط بكلياته وجزئياته ، ويستوعبه استيعاباً ، فلا تند عنه شاردة ولا واردة ، وكيف كان يحتمل ما يوجه إليه من اللوم والتأنيب الظالم دون أن ينبس بكلمة ، وكيف كان يستأنى ولا يتعجل فى عمل أى شيء وكيف كان يسد أذنيه عند سماع أقاويل السوء ، وكيف كان ينظر إلى أعمال الناس وأخلاقهم ويدرسها دراسة منزهة عن سوء الظن والرغبة فى استنباط العيوب والتهدى إلى المساوئ والميل إلى السفسطة والمغالطة ، وكيف كان يراعى الاقتصاد فى بيته وفراشه وملبسه وطعامه وخدمته ، وكان دأبه الصبر والجلد والعكوف على العمل حتى المساء ، وتذكر حبه لأصدقائه وكيف كان يحتمل المعارضة ، والسرور الذى كان يلم بنفسه حينما كان يأخذ بالرأى الذى يفضل رأيه ، وتقواه التى لم يكن بها أدنى أثر للاعتقاد بالخرافات ، فكر فى ذلك كله ، وتشبه به فى هذه الصفات جميعها حتى تلقى ساعتك الأخيرة بنفس مطمئنة ، وضمير خالص كما لقيها » .

ويقول فى الخاطرة الخامسة من الكتاب الثانى « لتذكر دائماً أنك رجل وأنك رومانى ، ولتؤد كل عمل تضطلع به بجدية غير متكلفة وإنسانية وحرية وعدالة ، وانظر لنفسك حتى لا تسترسل مع الأوهام التى قد تقف حجر عثرة فى سبيل تلك الصفات ، وهذا فى استطاعتك إذا كنت تقوم بأى عمل كأنه آخر عمل تتولى انجازه ، وإذا كانت شهواتك وأهواؤك لا تضغط على عقلك ، وإذا عملت على الخلاص من هوج التسرع وإذا خلت نفسك من عدم الاخلاص وحب الذات وإذا لم تشتك من مصيرك ، وترى من ذلك أنه ليس على الإنسان إلا اتباع أشياء قليلة ليبلغ فى الحياة المستوى الذى يرضى الآلهة ، لأن الذى يصل إلى هذا المدى يؤدى كل ما تطلبه منه القوى الخالدة » .

ويقول فى الخاطرة السابعة من الكتاب نفسه « لا تدع الأحداث تزعجك ، ولا تمكن الأشياء الخارجية من أن تستغرق أفكارك ، واعمل على الاحتفاظ بهدوء عقلك ، وصفاء تفكيرك ، حتى يكون فى مكنتك أن تتعلم شيئاً حسناً ، ودع الانتقال من شيء إلى شيء على غير هدى ، وهناك نوع آخر من هذا التجوال يحسن تجنبه ، لأن بعض الناس يبدو أنهم مشغولون ولكنهم لا يصنعون شيئاً ، وهم يرهقون أنفسهم ، ويبددون قواهم ، ولا يقصدون بلوغ غاية أو تحقيق مطلب » .

ويقول فى الخاطرة الثامنة « يندر أن يكون الإنسان غير سعيد لأنه يجهل أفكار غيره من الناس ، ولكن هذا الذى لا يتعرف أفكاره هو الشقى حقاً » .

وفى الخاطرة السابعة من الكتاب الثالث « لا تحسب أنك تظفر بفائدة من نقض وعد ، أو نكث عهد ، أو ترك التواضع ، أو بالكراهة وسوء الظن أو بلعن أى إنسان أو بالميل إلى عمل لا يحتمل الضوء ولا يقوى على مواجهة الدنيا ، لأن الذى يقدر قيمة عقله ويضع عبادة آلهته المقدسة فوق كل شيء ليس فى حاجة إلى أن يقوم بعمل محزن ، ولا يستذله خطب ، وليس فى حاجة إلى العزلة أو إلى الصحبة ، وأكثر من ذلك أنه لا يفر من الحياة ، ولا يجرى وراءها ، ولا يبالى بطول الزمن أو قصره الذى تسكن فيه روحه جسده ، وإذا قدر له أن يسلم روحه فى هذه اللحظة فانه سيكون مستعداً لذلك استعداده لأى عمل آخر يمكن أن يؤديه فى تواضع وترفق ، لأن هذا ديدنه الوحيد طوال حياته — وهو أن يكون عقله مشغولا على الدوام بما يليق بمخلوق اجتماعى عاقل » .

ويقول فى الخاطرة الثامنة من الكتاب نفسه « إذا اختبرت إنساناً قد صقلته الفلسفة ، وهذبته ، فانك لن

تجد فيه شيئاً غير سليم أو ضعة أو زيفاً ، ولا يستطيع الموت أن يفجأ حياته ناقصة ، ومن ثم لا يستطيع إنسان أن يقول إنه قد ترك المسرح قبل استيفاء لعب دوره ، وفضلا عن ذلك فإنه ليس فيه شيء من الصغار أو التكلف ، وهو لا يرتبط بغيره ارتباطاً وثيقاً ، ولا يتحاشى الناس ويعتزلهم » .

وفى الخاطرة الثالثة من الكتاب الرابع « من عادات الناس المألوفة أن يلوذوا فى الاعتزال بالأماكن التى لا يأوى إليها أحد ، أو يذهبوا إلى شاطئ البحر والجبال التماساً للعزلة ، وهذا ما التمسته فى أغلب الأوقات وحرصت عليه ، ولكن يعد كل شيء أن هذا مجرد وهم من الأوهام الدارجة ، لأنه فى وسعك أن تلوذ بحمى نفسك حيثما تريد ذلك ، وعقل الإنسان هو أكثر الأمكنة تحرراً من الجماعات ومن ضوضاء الدنيا إذا كانت أفكار الإنسان من هذا النوع الذى يكفل له السكينة التامة ، وقوام هذه السكينة حسن تنظيم العقل ، ولذلك فان الطريق الذى تسلكه هو أن تعمل على الاستفادة من هذه العزلة ، وتجدد فضيلتك فى ظلالها ، ولكى تحقق هذه الغاية عليك أن تزود نفسك بطائفة من التعاليم لا نزاع فيها لكى يستقيم فهمك ، وتعود إلى عملك راضياً قانعاً ، ومن أمثلة ذلك الشر الذى يزعجك ، فاذا واجهك هذا الشر فما عليك إلا أن تتناول الترياق المضاد له وتفكر فى أن الكائنات العاقلة إنما وجدت للتعاون على ما ينفع الجميع ، وأن اصطناع الأناة جزء من العدالة ، وأن الناس لا يحسنون السلوك لأنهم مغلوبون على أمرهم ، وفكر كذلك فى كم من الناس قد تورطوا فى مشكلات ، وقضوا أيامهم فى منازعات وسوء ظن وعداوات ، وهم الآن موتى وقد حرقت جثثهم ، ولم يبق منها سوى الرماد ، فاهدأ ولا تعكر صفو نفسك بعد ذلك ، وربما كان توزيع الدنيا لا يرضيك ، وعليك فى هذه الحالة أن تفكر فى الجانب الآخر ، فالعناية الالهية أو الذرات هى المسيطرة على الكون ، وفضلا عن ذلك فانك قد تذكر البراهين التى تثبت أن الدنيا كما هى مدينة عظمى وجماعة متعاونة ، ولكن ربما كانت حالتك الصحية هى التى تؤلمك ، وفكر فى هذه الحالة أن عقلك لا يتأثر بخشونة تيارات الاحساسات أو بنعومتها إذا خلا بنفسه وفكر فيما له من مزايا وقدرة ، وحينما يقوم بذلك فلتذكر فلسفة اللذة والألم التى أصغيت لها ووافقت عليها حتى فى تلك اللحظة ، وقد يكون طلب الشهرة هو الذى أثار همك وشغل بالك ، فاذا كان هذا مثار نقمتك فلتفكر فى أن الأشياء سرعان ما تختفى ويجر عليها النسيان أذياله ، وأى فوضى هائلة على جانبى الأبدية ، التهليل والتصفيق ! فكر فى فراغ الصوت وعدم استقرار الامتلاك وضآلة حكم هؤلاء الذين يعطونه لنا وضيق نطاقه ، لأن عالمنا الأرضى كله ليس سوى نقطة واحدة ، وفى الحيز الصغير ما أضأل مكان إقامتك ، وما أهون شأن هؤلاء المعجبين بك ، ومهما يكن من الأمر فلا تنس أن تلوذ بعالمك الصغير المحدود ، وعليك قبل كل شيء ألا تستعين بالضغط أو المجاهدة فى هذا السبيل ، بل تقدم فى حرية وفكر فى الأمر بوصفك كائناً بشرياً ومواطناً وإنساناً فانياً ، ولتضع نصب عينك من بين ذخائرك حكمتين ، وهما أولا أن الأشياء لا تستطيع أن تزعج الروح ، بل تظل فى الخارج مسلوبة الحركة ، وأن الازعاج وإحداث الاضطراب يأتيان من الرأى الذى يجول فى الروح ، وثانياً أن تفكر فى أن المنظر أخذ فى التحول والانزلاق إلى العدم ، وأنك أنت نفسك قد رأيت تغيرات كثيرة ، وموجز القول أن الدنيا كلها تحول وانتقال والحياة رأى » .

وفى الخاطرة العاشرة من الكتاب الرابع « كن على بينة من أن الحوادث تسير سيراً عادلا ، وإذا أحسنت النظر فى الأمور فانك لن تدرك ارتباط الأسباب بالمسببات وحدها ، بل ستعلم أن هناك توزيعاً للعدالة

مشرفاً على إدارة الشؤون الدنيوية يعطى كل شيء حقه فراقب الأمور كما بدأت ولتكن أعمالك مطابقة لأعمال الرجل الصالح – وأقصد الرجل الصالح فى عرف الفلسفة ومعناها الدقيق » .

ويقول فى خاطرة أخرى « أليس لك عقل فى رأسك ؟ نعم إنلك قد رزقت عقلا ، فلماذا إذن لا تنتفع به ؟ لأنه إذا كانت هذه الموهبة – موهبة العقل – تقوم بوظيفتها فانى لا أرى ماذا تحتاج إليه أكثر من ذلك » .

ويقول « فى الوقت الحاضر طبيعتك واضحة متميزة ولكنك عما قليل ستختفى فى الكل ، أو بالأحرى ستعود إلى العقل العام الذى وهبك الوجود » .

ويقول « لا تعمل كأنك ستطوى عشرة آلاف سنة ، فان الموت واقف لك بالمرصاد على كثب منك ، فلتكن صالحاً لعمل شيء خلال أيام حياتك ، وهذا فى وسعك » .

ويقول « لا تفقد اتزانك ولا تخبط خبط العشواء ولتكن نياتك مخلصة ومعتقداتك أكيدة » .

ويقول « ضع نفسك بغير تردد فى يد القدر ودعه يهيئ لك ما يريد من الحظ » .

« الذى يقوم بعمل مجيد والذين يتحدثون عن هذا العمل جميعهم أشياء قصيرة العمر سريعة الزوال » .

وهكذا يشير الإمبراطور الفيلسوف فى مختلف خواطره وتأملاته التى كتبها ليقوى بها على مواجهة الحياء ولقاء الموت إلى الاكتفاء بحسن السيرة وصفاء السريرة ، والقيام بالواجب على أحسن الوجوه ، وحسب الإنسان ذلك فى رحلته الأرضية القصيرة المدى السريعة الزوال .

